غزوة بني قريظة

قال «الزرقاني» في «شرح المواهب»: [كان دخول الرسول ﷺ المدينة يوم الأربعاء، يوم منصرفه عن الخندق، لسبع بقين من ذي القعدة].

وحَدَّث الزهري فقال: فلما كانت الظهر، أتى «جبريل» رسول الله ﷺ معتجراً[1] بعمامة من استبرق[2]، على بغلة عليها رِحالة[3]، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أَوَقَدْ وضعت السلاح؟ يا رسول الله! قال: نعم، فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا «محمد»! بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة.

ـ عند ابن هشام[4]: فإني عامدٌ إليهم فمزلزل بهم ـ.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً ـ عند الطبري[5]: منادياً ـ فأذَّن في الناس: إنَّ ـ ساقطة من ابن هشام ـ من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلِّيَنّ العصر إلا في بني قريظة.

ثم إن رسول الله ﷺ استعمل على المدينة «ابن أم مكتوم»، وقَدَّم رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس. ولما دنا «علي» من الحصون سمع منها مقالة قبيحة بحق رسول الله ﷺ،

---

(١) مُعْتَجِراً: مُعْتَماً.
(٢) الإستبرق: ضرب غليظ من الديباج.
(٣) الرحالة: السرج
(٤) سيرة ابن هشام (٣/٢٥٧).
(٥) تاريخ الطبري (٢/٥٨١).

فانقلب إلى رسول الله ﷺ فوجده في الطريق، فقال: يا رسول الله! لا عليك ألاَّ تدنو من هؤلاء الأخابث قال: (لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟) قال: نعم، يا رسول الله! قال: (لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً)، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال: (يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟)، قالوا: يا أبا القاسم! ما كنت جهولاً.

ومر رسول الله ﷺ ببعض أصحابه بالصَّوْرَيْن ـ مكان قريب من المدينة ـ قبل أن يصل إلى بني قريظة، فسألهم: (هل مَرَّ بكم أحد؟) قالوا: يا رسول الله! قد مَرَّ بنا «دَحية بن خليفة الكلبي» على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل، بُعِثَ إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم، فلما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة، نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم، يقال لها بئر «أُنا»[1]، وتلاحق به الناس، فأتى رجال منهم، من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر، لقول رسول الله ﷺ: (لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة)، فشغلهم ما لم يكن لهم منه بُدٌّ في حربهم، وأبوا أن يصلُّوا، لقول النبي ﷺ: (حتى تأتوا بني قريظة)، فصلَّوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه، ولا عنَّفهم به رسول الله ﷺ.

وقد روى ذلك الحديث محمد بن إسحاق، عن أبيه، عن معبد بن كعب بن مالك الأنصاري. ولما أصيب «سعد بن معاذ» أمر رسول الله ﷺ أن تضرب عليه قُبة في المسجد، ووضع السلاح ـ يعني عند منصرف رسول الله ﷺ من الخندق ـ ووضع المسلمون السلاح، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال: أوضعتم السلاح؟ فوالله! ما وضعت الملائكة بعدُ السلاح، اخرج إليهم فقاتلهم، فدعا رسول الله ﷺ بَلأْمَتِه فلبسها، ثم خرج وخرج المسلمون، فمرَّ ببني غَنْم، فقال: (من مرَّ بكم؟) قالوا: مرَّ علينا «دَحية الكلبي» ـ وكان يشبَّهُ سُنَّتُه ولحيتُه ووجهه بجبريل عليه السلام ـ حتى نزل عليهم،

(١) أُنَا: كَهُنَا، أو كحَتَّى: أنَّى، أو بكسر النون المشددة: أُنِّي، وهي بئر من آبار بني قريظة.

و«سعد» في قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ في المسجد، فحاصرهم شهراً ـ أو خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأشار «أبو لبابة بن عبد المنذر» إنه الذبح، فقالوا: ننزل على حكم «سعد بن معاذ»، فقال رسول الله ﷺ: (انزلوا على حكمه)، فنزلوا، فبعث إليه رسول الله ﷺ بحمار عليه إكاف[1] من الليف فحمل عليه.

قالت عائشة رضي الله عنها: لقد كان برأ كَلْمه[2] حتى ما يرى منه إلا مثل الخُرْص[3].

ودام حصار رسول الله ﷺ لهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جَهَدهم الحصار ـ ثقل عليهم ـ وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان «حُيَيُّ بن أخطب» دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، لما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غيرُ منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال «كعب بن أسد» لهم: يا معشر يهود! إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم! قالوا: وما هن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله! لقد كان تبيَّن لكم أنه لنبيٌّ مرسَلٌ، وأنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم هذه عليَّ، فهلُمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى «محمد» وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا، حتى يحكم الله بيننا وبين «محمد»، فإن نَهْلِكْ نَهْلِكْ ولم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإذا أبيتم هذه عليَّ فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى

(١) الإكاف: البرذعة.
(٢) الكَلْمُ: الجرح.
(٣) الخُرْص: حلقة القُرْط.

أن يكون «محمد» وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من «محمد» وأصحابه غِرَّةً، قالوا: نفسد سبتنا، ونُحْدِثُ فيه ما لم يكن أَحْدَثَ فيه مَنْ كان قبلنا، إلاَّ من قد علمت، فأصابه من المسخ ما لم يخف عليك، قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً. ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا «أبا لبابة» عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف ـ وكانوا حلفاء الأوس ـ نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبهش[1] إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم «محمد»؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح، قال «أبو لبابة»: فوالله! ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله ﷺ. ثم انطلق «أبو لبابة» على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله أَلاَّ يطأ بني قريظة أبداً، وقال: لا يراني الله في بلد خنتُ الله ورسوله ﷺ فيه أبداً. فلما بلغ رسولَ الله ﷺ خَبَرُه، وأبطأ عليه ـ وكان قد استبطأه، قال: (أما لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه).

وبينما كان رسول الله ﷺ في بيت أم المؤمنين، أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعتُ رسولَ الله من السَّحَر يضحك، فقلت: مِمَّ تضحك؟ يا رسول الله! أضحك الله سِنَّك! قال: (تيب على أبي لبابة) فقلت: ألا أبشره بذلك؟ يا رسول الله! قال: (بلى، إن شئت)، فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك، ولما توجه الناس إليه ليطلقوه، قال: لا والله! حتى يكون رسوله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مَرَّ عليه خارجاً إلى الصبح أطلقه.

---

(١) بَهَش إليه: خَفَّ.

وقال ابن هشام: أقام «أبو لبابة» مرتبطاً بالجذع ست ليالٍ، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحله للصلاة، ثم تعود فتربطه بالجذع، فيما حدثني بعض أهل العلم. والآية التي نزلت في توبته، قول الله ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]. وذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق[١]: ثم إن «ثعلبة بن سَعْية» و«أُسَيْد بن سعية» و«أسد بن عبيد» وهم نفر من بني هَدْل، ليسوا من بني قريظة ولا النضير، نَسَبُهم فوق ذلك، هم بنو عم القوم، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ

وكان «عمرو بن سُعْدَى القُرَظيّ» قد خرج في تلك الليلة، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه «محمد بن مسلمة» الأنصاري، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: «عمرو بن سعدى»، وكان «عمرو» قد أبى أن يدخل مع بني قريظة، في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبداً. فقال «محمد بن مسلمة» حين عرفه: اللَّهم! لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثم خَلَّى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله إلى يومه هذا! فذكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: ذاك رجلٌ نجَّاه الله بوفائه.

قال ابن إسحاق: وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برمَّة[٢] فيمن أوثق من بني قريظة، حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأصبحتُ رُمَّتُه ملقاةً، ولا يدرى أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ فيه تلك المقالة، والله أعلم أيَّ ذلك كان.

ويتابع ابن إسحاق قوله: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله! إنهم موالينا دون الخزرج، وقد

(١) سيرة ابن هشام (٣/٢٦٢).
(٢) الرُّمَّة: الحبل.

فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قَيْنُقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم «عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول»، فوهبهم له، فلما كلمه الأوس، قال رسول الله ﷺ: (ألا ترضون يا معشر الأوس! أن يحكم فيهم رجل منكم؟) قالوا: بلى، قال: (فذاك إلى سعد بن معاذ) وكان «سعد بن معاذ» قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من أَسْلَمَ، يقال لها: «رُفَيْدَة» في مسجده، كانت تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: (اجعلوه في خيمة «رفيدة» حتى أعوده من قريب، فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه، فاحتملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدَم ـ وكان رجلاً جسيماً ـ ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاَّك ذلك لتُحْسِنَ فيهم، فلما أكثروا عليه، قال: قد أَنَى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم «سعد بن معاذ» عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى «سعد» إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: (قدَّموا إليَّ سيدكم، أو قال: إليَّ خيركم) فأنزلوه، فقال رسول الله ﷺ: (احكم فيهم) قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تُسْبَى ذراريُّهم، وأن تُقْسَمَ أموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: (لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله). أو ليس هذا جزاء الغادرين؟ وفي رواية أخرى لابن إسحاق، قال: فلما انتهى «سعد» إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: (قوموا إلى سيدكم)، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو! إن رسول الله ﷺ قد ولاَّك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيها ما حكمت! قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسولُ الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ

إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: (نعم)، قال سعد: فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراريُّ والنساء، قال رسول الله ﷺ لسعد: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة)[١].

قال ابن هشام[٢]: حدثني بعض من أثق به من أهل العلم: أن «علي بن أبي طالب» صاح وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان!، وتقدم هو و«الزبير بن العوام» وقال: والله! لأَذُوقَنَّ ما ذاق «حمزة» أو لأَفتحَنَّ حصنهم، فقالوا: يا «محمد»! ننزل على حكم «سعد بن معاذ».

وأمر بهم رسول الله ﷺ أن يحبسوا في دار «كيسة بنت الحارث» بالمدينة ـ امرأة من بني النجار ـ، كانت تحت كذاب اليمامة «مسيلمة» ثم خلف عليها «عبد الله بن عامر بن كريز»، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، وهي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخرج بهم إليه أرسالاً[٣]، وفيهم عدو الله «حيي بن أخطب» و«كعب بن أسد» رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثِّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة، وقد قالوا لكعب بن أسد، وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب! ما تُراه يُصْنَعُ بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا يَنْزِع، وأنه من ذُهِبَ به منكم لا يرجع؟ هو والله! القتل. فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ.

وأُتِيَ بُحُيَيِّ بن أخطب، عدو الله، وعليه حُلَّةٌ فُقَّاحِيَّة[٤]، قد شقَّقها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملةً أنملة، لئلا يُسْلَبَها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله! ما لمت نفسي

(١) الأرقعة: السماوات، مفردها رَقيع.
(٢) السيرة (٣/٢٦٤).
(٣) أرسالاً: أي طائفة بعد طائفة.
(٤) فُقَّاحيَّة: تضرب إلى الحمرة على لون الورد. وقال ابن هشام: ضرب من الوشي.

في عداوتك، ولكنه من يخذُل الله يُخذَل، ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس! إنه لا بأس بأمر الله، كتَابٌ وقَدَرٌ وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

وروى عروة بن الزبير عن خالته، أم المؤمنين، عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة[1] قالت: والله! إنها لعندي تَحَدَّثُ معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق، إذ هتف هاتف باسمها، أين فلانة؟ قالت: أنا والله! قالت: قلت: ويلك! مالك؟ قالت: أقتل، قلت: ولِمَ؟ قالت: حَدَثٌ أحدْثتُه، قالت: فانْطُلِقَ بها فَضُرِبت عنقها، فكانت عائشة تقول: ما أنسى عَجِبْنَا منها، طيب نفس، وكثرة ضحك، وقد عرفت أنها تُقْتَل!.

وذكر ابن شهاب الزهري أن «الزَّبير بن باطا القُرَظيَّ» ـ وكان يكنى أبا عبد الرحمٰن ـ، وكان «الزَّبير» قد مَنَّ على «ثابت بن قيس بن شماس» في الجاهلية، يوم «بُعَاث» أخذه فَجزَّ ناصيته، ثم خلَّى سبيله ـ فجاءه، وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمٰن! هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني قد أردتُ أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى «ثابت» رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! قد كانت للزَّبير عندي يدٌ، وله عليَّ مِنَّةٌ، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: (هو لك)، فأتاه، فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فأتى «ثابت» رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أهله وولدُه، قال: (هم لك)، فأتاه، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك، فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز، لا مال لهم، فما بقاؤهم؟ فأتى «ثابت» رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! مالُه، قال: (هو لك)، فأتاه، فقال: إن

(١) قال ابن هشام: وهي التي طرحت الرحى على «خَلاَّد بن سويد» فقتلته، انظر سيرته (٣/٢٦٦). وقال أبو ذر الخشني: هي امرأة الحسن القرظي.

رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك، فهو لك. قال: أي «ثابت»! ما فعل الذي كأنَّ وجهَهُ مرآةٌ صينيةٌ تتراءى فيها عذارى الحي، «كعب بن أسد»؟ قال: قُتِلَ، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي «حُيَيُّ بن أخطب»؟ قال: قُتِلَ، قال: فما فعل مُقَدِّمتنا إذا شَدَدْنا، وحاميتُنا إذا كرَرْنا، عزَّال بن سموألٍ؟ قال: قُتِلَ، قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة ـ قال: ذهبوا، قُتِلوا، قال: فإني أسألك بيدي عندك، يا ثابت! إلا ألحقتني بالقوم، فوالله! مافي العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قَبْلَةَ دَلْو نَضحَ حتى ألقى الأحبة!

وعن ابن هشام: فَتْلَة دلو ناضح ـ أي مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أُخْرِجَتْ فيصبها في الحوض، يفتلها أو يردها إلى موضعه.

فقَدَّمه «ثابت» فضرب عنقه، فلما بلغ «أبا بكر» قوله: «ألقى الأحبة» قال: يلقاهم والله! في نار جهنم خالداً فيها مخلداً أبداً، فقال «ثابت بن قيس بن شماس» في ذلك، يذكر «الزَّبير بن باطا»:

وَفَتْ ذمتي أني كريم وأنني ... صبورٌ، إذا ما القومُ حادوا عن الصبر
وكان زَبِير أعظم الناس مِنَّةً ... عليَّ فلما شُدَّ كوعاه في الأسرِ
أتيت رسولَ الله كيما أفكَّه ... وكان رسولُ الله بحراً لنا يجري

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل كل من أنْبَتَ منهم.

وقال «عطية القُرَظِيُّ»: كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاماً، فوجدوني لم أنبت، فخلَّوْا سبيلي.

وذكر محمد بن إسحاق، عن أيوب بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أبي صعصعة، أخي بني عدي بن النجار: أن سلمى بنت قيس، أم المنذر، أخت سليط بن قيس، ـ وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته «رفاعة بن سموأل القرظي»، وكان رجلاً قد بلغ فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي! هب لي «رفاعة»، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل،

قال: فوهبه لها، فاستحيته.

ثم قسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخُمُسَ، فكان للفارس ثلاثة أسهم، سهمان للفرس، وسهم للفارس، وللراجل ممن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرساً، وكان أول فيءٍ وقع فيه السهمان، وأخرج منه الخُمُسُ، فعلى سنتها، وما مضى من رسول الله ﷺ فيها، وقعت المقاسم، ومضت السنة في المغازي، ولم يكن يسهم للخيل إذا كانت مع الرجل إلا لفرسين. ثم بعث رسول الله ﷺ «سعد بن زيد الأنصاري» أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً.

أما رسول الله ﷺ فقد اصطفى لنفسه من نسائهم «ريحانة بنت عمرو بن خُنَافة» إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وكان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله! بل تتركني في ملكك فهو أخف عليَّ وعليك، فتركها، وكانت حين سباها رسول الله ﷺ قد تَعَصَّت بالإسلام ـ أي: عصت ـ، وأبت إلا اليهودية، فَعزلها رسول الله ﷺ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: (إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة) فجاءه فقال: يا رسول الله! قد أسلمت «ريحانة» فسرَّه ذلك من أمرها[1].

وبعد الفراغ من أمر بني قريظة انفجر كَلْمُ ـ جُرْحُ ـ «سعد بن معاذ»، فقد ذكر علقمة في خبر عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ثم دعا «سعد بن معاذ» ـ يعني بعد أن حكم في بني قريظة ما حكم ـ فقال: اللهم! إنك قد علمت أنه لم يكن قوم أحبَّ إليَّ أن أقاتل أو أجاهد من قوم كذَّبوا رسولك. اللَّهم! إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قد

(١) ابن هشام (٣/٢٦٩)،

قطعت الحرب بينه وبينهم، فاقبضني إليك، فانفجر كَلْمُه، فرجَعَه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، فوالذي نفس «محمد» بيده! إني لأعرف بكاء «أبي بكر» من بكاء «عمر» وإني لفي حجرتي. قالت: وكانوا كما قال الله ﷻ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال علقمة: أي أُمَّه! كيف كان يصنع رسول الله ﷺ؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا اشتد وجده على أحد، أو إذا وجد، فإنما هو آخذ بلحيته.

وقال ابن إسحاق[١]: حدثني معاذ بن رفاعة الزُّرَقي، قال: حدثني من شئت من رجال قومي: أن «جبريل» عليه السلام، أتى رسول الله ﷺ حين قبض «سعد بن معاذ» من جوف الليل معتجراً بعمامة من إستبرق، فقال: يا محمد! من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهْتَزَّ له العرش؟ قال: فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجر ثوبه إلى «سعد» فوجده قد مات.

قال ابن إسحاق[٢]: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمٰن، قالت: أقبلت عائشة قافلةً من مكة، ومعها «أُسَيْدُ بن حُضَيْر»، فلقيه موت امرأة له، فحزن عليها بعض الحزن، فقالت له عائشة: يغفر الله لك يا أبا يحيى! أتحزن على امرأة وقد أُصِبْتَ بابن عمك؟ وقد اهتز له العرش!.

وقال ابن إسحاق[٣]: وحدثني من لا أتَّهم عن الحسن البصري قال: كان «سعد» رجلاً بادِناً[٤]، فلما حمله الناس وجدوا له خِفَّةً، فقال رجال من المنافقين[٥]: والله! إن كان لَبَادِناً، وما حملنا من جنازة أخَفَّ منه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: (إن له حملةً غيركم، والذي نفسي بيده! لقد

(١) ابن هشام (٣/٢٧٥).
(٢) ابن هشام (٣/٢٧٦).
(٣) انظر السيرة لابن هشام (٣/٢٧٦).
(٤) بادِناً: سميناً.
(٥) انظر الاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة «سعد بن معاذ».

استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش[١].

قال ابن إسحاق: وحدثني معاذ بن رفاعة عن محمود بن عبد الرحمٰن بن عمرو بن الجموح، عن جابر بن عبد الله قال: لما دفن «سعد» ونحن مع رسول الله ﷺ، سَبَّح رسول الله ﷺ، فسَبَّح الناس معه، ثم كبَّر فكبَّر الناس معه، فقالوا: يا رسول الله! مم سَبَّحت؟ قال: (لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره، حتى فَرَّجه الله عنه).

قال ابن إسحاق[٢]: ولِسَعْدٍ يقول رجل من الأنصار:

وما اهتَزَّ عرش الله من موت هالكٍ ... سمعنا به إلا لسَعْدِ أبي عَمْرِو

وقالت أم سعد، حين احتمل نعشه، وهي تبكيه[٣]:

وَيْلُ أمِّ سعد سَعْدَا ... صرامةً وحَدَّا

وسوداً ومَجْدَا ... وفارساً مُعَدَّا

سُدَّ به مُسَدَّا ... يَقُدُّ هاماً قَدَّا

يقول رسول الله ﷺ: (كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ).

---

(١) قال السهيلي صاحب الروض الأنف، عند الكلام على اهتزاز العرش: [وقد تكلم الناس في معناه وظنوا أنه مُشْكِلٌ ـ وقال بعضهم: الاهتزاز «هاهنا» بمعنى الاستبشار بقدوم روحه، وقال بعضهم: يريد حملة العرش، ومن عنده من الملائكة، استبعاداً منهم لأن يهتز العرش على الحقيقة، ولا بعد فيه، لأنه مخلوق، ويجوز عليه الحركة والهِزَّة، ولا يعدل عن ظاهر اللفظ ما وجد إليه سبيل. وحديث اهتزاز العرش لموت «سعد» صحيح. قال أبو عمر: هو ثابت من طرق متواترة، وما روي من قول «البراء بن عازب» في معناه: أنه سرير «سعد» اهتز، لم يلتفت إليه العلماء، وقالوا: كانت بين هذين الحيين من الأنصار ضغائن، وفي لفظ الحديث: اهتز عرش الرحمٰن، رواه أبو الزبير عن جابر، يرفعه، ورواه البخاري عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، وأبي سفيان، كلاهما عن جابر، ورواه من الصحابة جماعة غير جابر، منهم أبو سعيد الخدري، وأُسَيْد بن حُضَيْر، ورُمَيْثة بنت عمرو، ذكر ذلك الترمذي، والعجب لما رُوِيَ عن مالك رحمه الله، من إنكاره للحديث، وكراهيته للتحدث به مع صحة نقله، وكثرة الرواة له، ولعل هذه الرواية لم تصح عند مالك، والله أعلم]. انتهى كلام السهيلي.

(٢) ابن هشام في السيرة (٣/٢٧٧).

(٣) أم سعد: كبيشة بنت رافع بن معاوية.

واستشهد من المسلمين يوم بني قريظة «خَلاَّد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو» طرحت عليه رحًى، فقتلته، قال ابن إسحاق[١]: فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: (إن له لأجر شهيدين)، ومات «أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان، أخو بني أسد بن خزيمة، ورسول الله ﷺ محاصرٌ بني قريظة، فدفن في مقبرة بني قريظة التي يدفنون فيها اليوم، وكان فتح بني قريظة في ذي القَعْدة أو في صدر ذي الحجَّة، في قول ابن إسحاق، وأما الواقدي فإنه قال: غزاهم رسول الله ﷺ في ذي القَعْدة، لليالٍ بقين منه، وزعم أن رسول الله ﷺ أمر أن يُشَقَّ لبني قريظة في الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل (عليٌّ) و(الزبير) يضربان أعناقهم بين يديه، وزعم أن المرأة التي قتلها النبي ﷺ يومئذٍ كانت تسمى «بُنَانَة» امرأة الحكم القُرَظي، كانت قتلت «خلاد بن سويد» رمت عليه رحًى، فدعا له رسول الله ﷺ، فضُرِبَ عنقها بخلاد بن سويد.

وكان رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد فراغه من بني قريظة كما ذكر ابن إسحاق في آخر ذي القَعْدة أو في صدر ذي الحجَّة، والله أعلم.

وقد ذكر شعراء المسلمين والمشركين أمر الخندق وبني قريظة بقصائد كثيرة لا يتَّسع المَقَام لذكرها، وليس يضيرنا الإشارة إلى بعضها، وإيراد أبيات منها، وقد أوردها ابن هشام في سيرته، من صفحة (٢٨٠ـ ٣٠٠/ ٣٤٠)، ولم يشر ابن جرير في تاريخه إليها. قال كعب بن مالك السلمي[٢]:

وسائلةٍ تُسائل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عِدْلاً ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزيرَ صِدْقٍ ... به تعلو البرية أجمعينا
تقاتل معشراً ظلموا وعقُّوا ... وكانوا بالعداوة مُرْصِدينا
لننصر أحمداً والله حتى ... نكونَ عبادَ صِدْقٍ مُخْلَصينا
ويعلم أهلُ مكة حين ساروا ... وأحزابٌ أتوا مُتَحَزِّبينا

(١) سيرة ابن هشام (٢٧٩/ ٣).
(٢) الأبيات في السيرة (٢٨١ـ ٢٨٢/ ٣).

بأن الله ليس له شريكٌ وأن الله مولى المؤمنينا
فإمَّا تقتلوا سعداً سفاهاً فإن الله خير القادرينا
سيدخله جناناً طيباتٍ تكون مقامةً للصالحينا
كما قد ردَّكم فَلاً شريداً بغيظكم خَزَايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثَمَّ خيرا وكدتم أن تكونوا دامرينا(١)
بريح عاصفٍ هبَّت عليكم فكُنتم تحتها مُتَكَمِّهينا(٢)

يشير «كعبٌ» إلى قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: قريشاً وغطفان ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٤ ـ ٢٦] أي: قتل الرجال وسبي الذراري والنساء ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ يعني خيبر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

وقال «كعب» في قصيدة أخرى:

جاءت سَخِينةُ(٣) كي تُغالِبَ رَبَّها فَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّب

قال ابن هشام: حدثني من أثق به قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: لما قال كعب بن مالك:

جاءت سَخِينةُ كي تغالب ربَّها فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

قال له رسول الله ﷺ: (لقد شكرك الله يا كعب! على قولك هذا).

وهكذا تبلَّجت شمس الحق، وظهر أهله على من عاداهم، وحاق بأهل الباطل الخزي والخسران والهلاك في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

---

(١) دامرين: هالكين.
(٢) مُتَكَمِّهين: المتكمه: الأعمى.
(٣) سَخِينَة: لقب قريش في الجاهلية.

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

وأخذ الإسلام ـ دين الحق ـ يقوى ويشتد، وبات الشرك يزداد وَهْناً على وَهْناً، وأصبح نعيه قاب قوسين أو أدنى، لأن كبار قادة قريش وزعمائها هلكوا في بدر، ولم يعد لمن بقي من أبنائهم وأقاربهم أمل في مناجزة المسلمين المؤيدين من الله ورسوله ﷺ، والملائكة بعد ذلك ظهير، حتى إذا أحسوا بعجزهم عن مقارعة الحق، والاستمرار في تحديه، هُرِع السعيد منهم إلى دخول واحة الإسلام، واثَّاقل الشقي عن اتباع رسول الهدى، فخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وكان «عمرو بن العاص» و«خالد بن الوليد» و«عثمان بن طلحة بن أبي طلحة» من الفئة التي سعدت بالإسلام، وجنت من واحته أينع الثمار، فلنستمع إلى «عمرو بن العاص» يحدثنا عن إسلامه وإسلام أخويه «خالد» و«عثمان»، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي قال: حدثني «عمرو بن العاص» من فيه، قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله! أني أرى أمر «محمد» يعلو الأمور عُلُوًّا منكراً، وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهره «محمد» على قومنا، كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن تكون تحت يديْ «محمد»، وإن ظهر قومنا، فنحن مَنْ قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأُدُمُ ـ الجلود ـ فجمعنا له أُدُماً كثيراً، ثم خرجنا، حتى قدمنا عليه.

فوالله! إنا لعنده إذ جاءه «عمرو بن أمية الضَّمْري»، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن «جعفر» وأصحابه. قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا «عمرو بن أمية الضَّمْري» لو قد دخلتُ على النجاشي، وسألته إياه، فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها ـ أي: كفيتها ـ حين قتلت رسولَ «محمد». قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت إليَّ من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك! قد أهديت إليك أُدُماً كثيراً، قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك! إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مَدَّ يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقاً[1] منه، ثم قلت له: أيها الملك! والله! لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي «موسى» لتقتله؟

قال: قلت: أيها الملك! أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو!، أطعني واتبعه، فإنه والله! لعلى الحق، وليظهرَنَّ على من خالفه، كما ظهر «موسى» على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم.

فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عَمَّا كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأُسْلِمَ، فلقيتُ «خالد بن الوليد»، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: إلى أين؟ يا أبا سليمان! قال: والله! لقد استقام المَنْسِمُ[2]، وإن الرجل لنبيٌّ، أَذهبُ والله فأُسْلِم، فحتى متى؟

---

(١) فَرَقاً: فَزَعاً وخوفاً.

(٢) المَنْسِم: خف البعير، قال أبو ذر: ومعناه: تبيَّن الطريق ووضح.

قال: قلت: والله! ما جئت إلا لأُسْلِمَ. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم «خالد بن الوليد» فأسلم وبايع، ثم دنوتُ، فقلت: يا رسول الله! إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ، يا عمرو! بايع فإن الإسلام يَجُبُّ[١] ما قبله. وإن الهجرة تَجُبُّ ما قبلها، قال: فبايعته، ثم انصرفت.

قال ابن هشام: ويقال: فإن الإسلام يَحُتُّ[٢] ما كان قبله، وإن الهجرة تَحُتُّ ما كان قبلها.

قال ابن إسحاق؛ وحدثني من لا أتَّهم: أن «عثمان بن طلحة بن أبي طلحة» كان معهما، أسلم حين أسلما.

فقال ابن إسحاق: فقال ابن الزَّبَعْرَى السهميُّ[٣]:

أَنْشُدُ عثمان بن طلحة حِلْفَنَا ... ومُلْقَى نعال القوم عند المُقَبَّلِ[٤]
وما عقد الآباء من كل حِلْفه ... وما خالدٌ من مثلها بِمُحَلَّلِ
أمفتاحَ بيتٍ غير بيتك تبتغي ... وما يُبْتَغَى من مجد بيتٍ مُؤَثَّلِ[٥]
فلا تأمَنَنَّ خالداً بعد هذه ... وعثمان جاء بالدُّهَيم[٦] المُعَضَّلِ[٧]

وكان مفتاح الكعبة عند «سُلاَفة بنت سعد» أم «عثمان بن طلحة» فسأله رسول الله ﷺ أن يعيره إياه يوم الفتح - فتح مكة، حتى يدخل الكعبة ويطهرها من أصنامها، ويصلي فيها، فجاءه به، ثم ردَّه إليه بعد قضاء وطره، وكان رد المفتاح إليها باعثاً على إسلامها، فأنقذت نفسها من النار.

---

(١) يَجُبُّ: يقطع.
(٢) يَحُتُّ: يُسْقِطُ.
(٣) سيرة ابن هشام (٣/٣٠٥).
(٤) المُقَبَّل: موضع تقبيل الحجر الأسود.
(٥) المُؤَثَّل: القديم.
(٦) الدُّهَيْم: من أسماء الداهية.
(٧) المُعَضَّل: الشديد.